المفارقة عنصراً فاعلاً في بناء النسق الثقافي

ترتبط المفارقة في مظاهر عدة ، تتصل بالإنسان والوجود والمجتمع ، والحياة مليئة بالمتناقضات ، وتبرز المفارقة في الزوايا التّضاد والتناقض بين العناصر التي كان ينبغي أن تُظهر لنا الموافق على عكس حقيقتها ، وذلك "أنّ تحاور المتنافرات جزء من بنية الوجود " ،فثمة تنافرات ومفارقات في هذا الوجود منها ما يظهر الخير مع الشر ، والصّدق مع الكذب ، ويختلط الفرح مع الحزن والمحدود واللامحدود .... الخ ، وهكذا فإن ضد لا يظهره إلا الضد ، وهي ترتبط في كثير من أشكالها بالسّخرية والتهكم والاستهزاء ، وترتكز على كونها يجب أن تجعل مُستقبلها يؤمن بالتناقض والاختلاف حتى وان استنكر ذلك بداية الامر " فالمفارقة تقوم على استنكار الأختلاف والتّعاون بين أوضاع كان من شأنها أن تتفّق وتتماثل ، أو بتعبير مقابل تقوم على أفتراض ضرورة الأتّفاق فيما واقعه الأختلاف ".

وقد بين كثير من النقاد إلى أهميّة المفارقة ورسوا تأثيرها في العمل الأدبي ، أذ ربط " وين بوث " بين الحياة والمفارقة حين ذهب إلى أنه "لدى قراءتنا أيّة مفارقة تستحق الجهد ، فإننا نقرأ الحياة نفسها ... نقرأ الشخصية والقيمه ، ونشير إلى أعمق معتقداتنا " ، ويقول : " توماس مان " " إن المفارقة هي ذرّة الملح التي وحدها تجعل الطعام مقبول المذاق "، ويؤكد " كير كيفادر " " أن ليس من حياة بشرية أصيلة ممكنة من دون مفارقة ". لقد تعددت تعريفات المفارقة ، ولكن من الصعب تقديم تعريف ثابت لها .

ويمكن أن نبين تعريف المفارقة في المعاجم اللغوية تعني في اللغة من الجذر الثلاثي "فرق"، فرقه يفرقه فرقاً وفرقه"، أي بمعنى التفريق بين الشيئين . أما الزمخشري يقول :" وقفت فلاناً على مفارق الحديث : أي على وجوهه الواضحة " وكذلك تعد المفارقة " فارق الشيء مفارقة وفراقاً : أي باينه ، وفارق فلان امرأته مفارقة وفراقاً أي باينها " . وهذا المعنى الذي تحققه المفارقة في مستواها اللغوي يتفق تماماً مع المفهوم الكلّي للمفارقة في الحياة والفن ، إذ إنّ دلالة الكلمة " باينه : فارقه " تشي بمعنى الأنحراف من سلوك ما إلى سلوك آخر متغير ، وهكذا هي المفارقة بمعناها الشمولي واقترانها بدلالة اللاتوقع والانفعال .

وهذا يعني إنّ المفارقة هي التفريق بين الأشياء، وتعني كذلك تعدد أوجه المعنى للفظ الواحد، وذلك أن اللفظ الواحد يحتمل أوجهاً متغيرة دلالياً.

ويؤكّد عبد القاهر الجرجاني (ت) (٤٧٤هـ) أنّ المفارقة نوع من التّضاد " بين المعنى ومعنى المعنى"، والمعنى هو المفهوم من ظاهرة اللفظ والذي يصل إليه بغير واسطه، (ومعنى المعنى)، أن تفعل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى الى معنى آخر ". المعنى المخالف أو المتضاد الذي لم يتم ذكره من قبل صاحبه . ويجعل عبد القاهر الجرجاني " مدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل " أن المفارقة وإن دنت من الإطار الدلالي العام الذي تندرج فيه هذه التعبيرات : كناية واستعارة وتمثيلاً ، من حيث الاتساع والمجاز والإضراب عن المعنى المباشر

ووجوب الاستدلال في ذلك كله ....، فإنها تخرج على ظاهر التعبير ، إلى ما يناقض ذلك الظاهر بإفادة السياق " .

يتبين من خلال ذلك " بأن الدلالة في المفارقة دلالة لفظية سياقية ، تخرج على معنى الجملة الحرفي إلى معنى المتكلم ، على ظاهر المعنى إلى ضده ، وعلى المعنى الحرفي إلى المدلول الذي تنتجه المقابلة ، بما هي اتساعاً تضاد لغوي سياقي بين فعلين ، أو حدثين ، أو موقفين ، أو نمطين سلوكين ، أو نحو ذلك .

ويتضح من خلال ذلك إن البلاغة العربية لم يرد فيها مصطلح المفارقة ، ولكنه ورد في تسميات إخرى هذه التسميات تحمل مصطلح المفارقة ، ولكنه ورد في تسميات أخرى هذه التسميات تحمل مصطلح المفارقة ، فالكلام العربي يستخدم أساليب كلامية متعددة يراوغ ويتقنع بأقنعة مختلفة توحي بهما يخفي خلفها .

ومن أبرز تعريفات المفارقة للدكتورة سيزا قاسم بأنه " استراتيجية قول نقدي ساخر ، وهي في الواقع تعبير عن موقف عدوانّي ، ولكنه تعبير غير مباشر يقوم على التورية والمفارقة ، هي طريقة الخداع الرقابة ، حيث إنها شكل من الأشكال البلاغية التي تشبه الاستعارة في ثنائية الدلالة ، فالمفارقة في كثير من الأحيان تراوغ الرّقابة بأنها تستخدم على السّطح قول النظام السائد نفسه ، بيد أنّها تحمل في طيّاتها قولاً مغايراً " .